الباب الخامس

الإدارة الإسرائيلية للحرب

الفصل الأول

أسود تقودها حمير[1]

دخلت إسرائيل الحرب في غزة «في ظروف سياسية مريحة لا مثيل لها. وساندت الأسرة الدولية في البداية العملية الإسرائيلية، التي عُرضت كرد على الإرهاب»[2]. وكانت «أهداف الحملة والشروط الجديدة لإنهائها، والتي يطرحها رئيس الوزراء إيهود أولمرت تبدو تمامًا كتلك التي عرضها في خطابه في الكنيست في ١٧ يوليو (تموز) ٢٠٠٦. في حينه، صرح بأن الحرب ترمي إلى: إحلال وقف نار تام على الحدود الشمالية، انتشار الجيش اللبناني في كل مناطق جنوب لبنان، إخراج حزب الله من المنطقة، والإزالة التامة لتهديد الصواريخ على سكان إسرائيل. أما في المداولات الداخلية، فقد وعد بأن الحرب ستستمر حتى إزالة حكم حماس من القطاع»[3].

ولكن، فقد فشلت إسرائيل في تحقيق أهدافها، وذلك لإخفاقها على المستوى السياسي، ولغياب الرؤية الإستراتيجية لهذه الحرب، وللأداء السيئ لقيادتها العسكرية ووحداتها المقاتلة، وأيضًا لنتائج الحرب العكسية على مصالحها، ومصالح حلفائها.

(١) أنتوني كوردسمان، انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية، مصدر سابق، ص ٢٢٠.
(٢) أسرة التحرير، الصحوة من سكرة القوة، هاآرتس، ١/ ٢/ ٢٠٠٩.
(٣) أسرة التحرير، حملة الرصاص المصهور وعملية التسيس، هاآرتس، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

أسود تقودها حمير

يخلص أنتوني كوردسمان إلى أن التخبط السياسي الإسرائيلي في إدارة هذه الحرب شبيه بما وقعت فيه بريطانيا في الحرب العالمية الأولى: قوة كبيرة تفتقر إلى القيادة، أو بعبارة ذات دلالة بالغة «أسود تقودها حمير»، يقول كوردسمان: «هل سينتهي أمر إسرائيل إلى تمكين عدو بالمعنى السياسي كانت قد هزمته بالمعنى التكتيكي ؟ هل ستُلحق أفعال إسرائيل في هذا السياق ضررًا بالغًا بالموقف الأمريكي في المنطقة، وبأي أمل بالسلام، وكذلك بالأنظمة والأصوات العربية المعتدلة ؟. إذا شئنا الصراحة، يبدو أن الجواب حتى الآن هو نعم. وإذا شئنا إعادة صوغ تعليق على إدارة الحكومة البريطانية للجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، نقول إن أسودًا تقودها حمير على ما يبدو»[1].

الجيش الإسرائيلي كمن يتخبطه الشيطان من المس

ليست الإدارة السياسية الإسرائيلية هي وحدها التي تستحق لقب «حمير تقود أسودًا» ؛ بل كان الجيش الإسرائيلي أيضًا وقيادته العسكرية يستحقان هذا اللقب عن جدارة، يقول بن كاسبيت: «يستحق الجيش الإسرائيلي كلمة مستقلة. صحيح أنه جيش جديد، ومختلف، وهادئ ومتواضع ومدرب وناجع. من جهة ثانية خوف التنفيذ فظيع. القيادة العليا مترددة. يفكر الجميع في لجان التحقيق، وفي المصابين، وفيما سيقول الإعلام.

دخل الجيش الإسرائيلي غزة كمن يتخبطه الشيطان من المس. يمشي على البيض. هذا جيد من جهة ما، لكنه خطر أيضًا. فعندما يمشي على البيض لا يكون وصول»[2].

دولة آخذة في الغرق

هذا التخبط السياسي الإسرائيلي له تأثيره على مستقبل إسرائيل، يقول عوفر شيلح:

---

(١) أنتوني كوردسمان، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

(٢) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩.

«دولة آخذة في الغرق في مسيرة صبيانية وخصخصة يمكنها أن تحتفل بعودة الابن[1]، دون أن تستوعب بأن الطريق التي عولجت فيه قضيته، والحملة التي ضربت (حماس) ضربة شديدة، منحتا المنظمة الإسلامية نصرًا ما كان يمكنها حتى أن تحلم به»[2].

* * *

(١) يقصد الأسير الإسرائيلي لدى حماس الجندي جلعاد شاليط.

(٢) عوفر شيلح، جلعاد سيعود .. حماس ستنتصر، معاريف، ١٠/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الثاني

رب البيت جُن جنونه

لقد اتبعت إسرائيل في حرب غزة سياسة «رب البيت جُن جنونه»، يقول ميرون بنبنستي: «أراد محدثو عملية الرصاص المصهور أن يميزوها بتعريفين متناقضين: «رب البيت جُن» ويرد بوحشية مجنونة، و«غضب مضبوط» أيضًا، أي عملية عقلانية ترمي إلى الردع. ينبغي أن نضيف إلى هذين التعريفين تعريفًا آخر وهو أنها رد غريزي مكرر من جماعة مهاجرين مغتصبة، يرمي إلى أن يَسم وعي الواقعين تحت الاحتلال: بعدم جدوى بقاء واستمرار المقاومة»[1].

هذه السياسة سماها تقرير جولدستون بنظرية الداهية، فيقول: «تتسق التكتيكات التي استخدمتها القوات المسلحة الإسرائيلية في هجوم غزة مع ممارسات سابقة، كان أحدثها أثناء حرب لبنان في عام ٢٠٠٦. فقد ظهر حينئذ مفهوم يُعرف باسم نظرية الداهية، والذي ينطوي على استخدام قوة غير متناسبة، ويتسبب في إحداث ضرر ودمار كبيرين للممتلكات والهياكل الأساسية المدنية، والمعاناة للسكان المدنيين»[2].

سياسة الحرب هذه دأبت إسرائيل على استخدامها ضد الشعب الفلسطيني. وهي تقوم على محاور ثلاثة، هي:

---

(١) ميرون بنبنستي، الويل للمنتصرين، هاآرتس، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) تقرير بعثة جولدستون الموجز التنفيذي، مصدر سابق، ص ١٤.

- الصدمة والترويع.
- شن حرب نفسية واسعة النطاق على الشعب الفلسطيني.
- تشديد الحصار، والمنع شبه الكامل لدخول المساعدات والغذاء والمحروقات.

الصدمة والترويع

استخدمت إسرائيل النيران بكثافة شديدة وبنوعيات عالية الدقة وذات قدرة تدميرية هائلة على رقعة جغرافية محدودة والأرقام شاهدة على ما نقول:

- حتى ٢/ ١/ ٢٠٠٩: «نفذت» الطائرات القتالية نحو خمسمائة طلعة»[١].

- حتى ١٣/ ١/ ٢٠٠٩: «نُفذت ١٢٠٠ غارة لسلاح الجو على أهداف تتراوح بين منصات إطلاق للصواريخ، وحتى مؤسسات الدعوة لحماس التي هوجمت ٢٣ مرة»[٢]، أي بواقع ١٢٩ طلعة جوية يوميًّا.

- ألقى سلاح الجو وحده نحو ألف وخمسمائة طن مواد متفجرة على غزة، قسم كبير منها هو تسليح دقيق. هذه ذخيرة من شأن الجيش الإسرائيلي أن يحتاج إليها في المواجهات الأكبر في لبنان، وسوريا، وإيران»[٣].

- «حاولت إسرائيل مرتين على الأقل اغتيال رئيس الذراع العسكري لحماس أحمد الجعبري. في إحدى الحالتين، ألقى سلاح الجو قنبلتين بوزن طن على مبنى كان يبدو أن الجعبري يمكث فيه مع مجموعة من نشطاء آخرين من الذراع العسكري. أحد رجال حماس قُتل، ولكن الجعبري نفسه لم يصب بأذى»[٤].

حتى اختيار التوقيت لبدء الحرب كان مقصودًا به إيقاع أكبر كم من الخسائر البشرية خصوصًا في الأطفال، تقول عميرة هاس: «إن من أعطى أمرًا لنحو مائة من الطيارين

(١) يوئيل ماركوس، يا حلو الكيلومترات تقلصت، هآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) عوفر شيلح، ماذا نريد، معاريف، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.
(٣) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، نهاية مع وقف التنفيذ، هآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) عاموس هرئيل، الاستخبارات الإسرائيلية تحقق إذا كانت حماس صفت عملاء في غزة، هآرتس، ٢٩/ ١/ ٢٠٠٩.

المقاتلين ليقصف أهدافًا للعدو في غزة يعلم جيدًا أسماء المدارس التي تجاور أهدافًا كثيرة جدًّا، ولا سيما محطات الشرطة المدنية في يوم السبت في الحادية عشرة ظهرًا، زمن المفاجأة الضخمة التي أعددناها للعدو، كان جميع أولاد القطاع في الشوارع، نصفهم أنهى في الحال نوبة الدراسة الأولى، والنصف في الطريق إلى النوبة الثانية»[1].

حرب نفسية ضارية

شنت إسرائيل حربًا نفسية شديدة لا تقل ضراوة عن الهجوم العسكري، فقامت «بإسقاط أكثر من ٢,٥ مليون منشور، وأجرت أكثر من ١٦٥ ألف مكالمة هاتفية. هذا عدا الطلقات التحذيرية لأسطح المنازل لتحذير المدنيين ليلوذوا بأنفسهم عن العمليات العسكرية»[2]. ولكن تقرير جولدستون يعلق على ذلك، فيقول: «تلاحظ البعثة وجود عوامل، قوّضت على نحو يُعتد به فعالية التحذيرات الصادرة، وهذه العوامل تشمل عدم التحديد في كثير من الرسائل الهاتفية المسجلة مسبقًا والمنشورات ومن ثم عدم مصداقيتها. كما أن مصداقية التعليمات الصادرة بالانتقال إلى مراكز المدن؛ توخيًا للسلامة قد قلّل منها أيضًا، حقيقة أن مراكز المدن كانت موضع هجمات مكثفة. وبحثت البعثة أيضًا الممارسة المتمثلة في إسقاط متفجرات أخف على أسطح المباني أو ما يُطلق عليه طَرْق الأسطح. وهي تخلص إلى أن هذا الأسلوب غير فعّال كتحذير، ويشكل نوعًا من أنواع الهجوم على المدنيين الذين يقطنون المبنى. وأخيرًا، تشدد البعثة على أن إصدار التحذير لا يعفي القادة وتابعيهم من مسؤولية اتخاذ جميع التدابير الممكنة الأخرى للتمييز بين المدنيين والمقاتلين»[3].

تشديد الحصار على قطاع غزة

حاولت إسرائيل تركيع القطاع عبر تشديد الحصار المشدد عليه أصلًا. ففي تقرير لمنظمة هيومان رايتس ووتش[4] جاءت محتوياته صادمة لكل حس إنساني، نقرأ أوضاع القطاع في المجال الطبي، فكيف بالمجالات الإنسانية الأخرى ؟!:

---

(١) عميرة هاس، هكذا نحبهم، هآرتس، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(٢) دولة إسرائيل، العملية الجارية في غزة: الجوانب الوقائعية والقانونية، يوليو ٢٠٠٩، ص ٣.

(٣) تقرير بعثة جولدستون، الموجز التنفيذي، مصدر سابق، ص ٨.

(٤) هيومان رايتس ووتش، حياة الحرمان والخطر، موقع منظمة هيومان رايتس ووتش، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

أعلى معدل إصابات

«تُعد الإصابات والخسائر في أول ١٧ يومًا هي الأعلى في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني منذ عقود، وقد فاقت كثيرًا قدرة المرافق الصحية والمستشفيات في غزة على التحمل. أكثر من ٤٠٪ من القتلى و٥٠٪ من المصابين هم من النساء والأطفال. وحتى ١١ يناير (كانون الثاني)، كان ٤١٣ من المصابين في حالة حرجة تتطلب العناية المركزة.

حصار الجرحى

ومن المشكلات الجدية الأخرى عدم القدرة على نقل الأشخاص المصابين إصابات حرجة إلى خارج قطاع غزة، أو الذين يحتاجون إلى عناية مركزة لفترة طويلة. ولا يتوفر إلا خياران: سواء إلى إسرائيل عبر معبر إيريز، أو إلى مصر عبر معبر رفح.

مستشفيات بلا كهرباء

تأثرت المستشفيات جراء انقطاع الكهرباء بعد توقف محطة كهرباء غزة من ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٨ إلى ١٠ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩. واعتمدت بشكل حصري على مولدات الكهرباء. حتى ٧ يناير (كانون الثاني) لم يكن هناك من وقود في مستشفى الشفاء ـ المستشفى الرئيسي في غزة ـ إلا ما يكفي لتشغيل المولد الكهربائي لثلاثة أيام فقط، وفي مستشفى غزة للأطفال كمية أقل. ونفد الوقود من سيارات الإسعاف في مستشفى كمال عدوان.

نقص الدواء والأطباء

٧٠٪ تقريبًا من أصحاب الأمراض المزمنة أُجبروا على وقف علاجهم بسبب الوضع الأمني. وبالنسبة للجرحى الذين ينجحون في الوصول إلى منشأة طبية، فإن العلاج بدائي؛ لأن العاملين الطبيين يواجهون عددًا هائلًا، يحتاجون لإنقاذ حياتهم. ولا يوجد ما يكفي من الأطباء والممرضات في المستشفيات. وفي ٥ يناير (كانون الثاني) حاولت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بلا جدوى أن تنسق المرور الآمن لحافلة فيها ٥٨ شخصًا من العاملين بالمستشفيات لبلوغ أماكن عملهم.

حالة مروعة

في حالة مروعة على نحو خاص، أفادت اللجنة الدولية للصليب الأحمر: أنه في ٧ يناير

(كانون الثاني) حصلت عربة للجنة برفقة أربع سيارات إسعاف للهلال الأحمر الفلسطيني للمرة الأولى على حق الدخول إلى عدة منازل في حي الزيتون في مدينة غزة، وكانت القذائف الإسرائيلية قد أصابتها. وقالت اللجنة إنها طلبت الإذن من الجيش الإسرائيلي منذ ٣ يناير (كانون الثاني) للدخول إلى المنطقة، لكن الجيش الإسرائيلي لم يمنحها الإذن إلا بعد أربعة أيام. وعثر الطاقم على ١٢ جثة ملقاة على حشية فراش وأربعة أطفال صغار يرقدون إلى جوار أمهاتهم القتلى. وكان الجنود الإسرائيليون على مسافة ٨٠ مترًا لدى وصول المسعفين. وحين وصل المسعفون أخيرًا أمرهم الجنود بالمغادرة ؛ لكن المسعفين رفضوا. ثم منعهم الجنود من نقل الجثث إلى سيارة الإسعاف فاُضطروا إلى نقل الجثث على عربة يجرها حمار.

رب البيت جُن جنونه في الضفة أيضًا

لقد حاولت إسرائيل بشتى الوسائل المجنونة وأد أي احتجاج فلسطيني في الضفة، يقول تقرير جولدستون[1]: «العمليات الإسرائيلية في قطاع غزة تسببت في موجة من التظاهرات فى الضفة التي لم تنته عندما انتهت العمليات. أعداد اعتقالات الأطفال كانت مرتفعة مع ارتفاع النسبة المئوية للأطفال المتهمين برشق بالحجارة، مما يشير إلى أنهم اُعتقلوا أثناء المظاهرات».

ولقد «خلصت اللجنة الدولية للدفاع عن الأطفال فرع فلسطين في تقريرها الذي صدر في ٩/ ٦/ ٢٠٠٩ إلى أن الاعتداء على الأطفال الفلسطينيين من قبل السلطات الإسرائيلية كان بشكل منهجي ومؤسسي.

وفي بيان صدر يدعم تقرير الحركة من اليونيسيف ومنظمة الصحة العالمية ومفوضية حقوق الإنسان الدولية ذكر أن: المحاكم العسكرية الإسرائيلية تنتهك الكثير من الحقوق الأساسية للمحاكمة العادلة وفقًا للقانون الإنساني الدولي وقانون حماية الإنسان. وعلى سبيل المثال، تقريبًا في جميع الحالات فإن الأدلة الأولية المستخدمة لإدانة الأطفال هو الحصول على اعتراف من خلال التحقيقات القسرية التي أُجريت في غياب محام. التهمة الأكثر شيوعًا التي وُجهت لهؤلاء الأطفال هي إلقاء الحجارة في ٢٧٪ من الحالات، والتي

(١) تقرير بعثة جولدستون، النص الإنجليزي، ص ٤٠٩، ٤١٠.

تحمل عقوبة أقصاها ٢٠ سنة مع احتمال صدور أحكام قاسية. في ٩٥٪ من الحالات انتهت باعتبارهم مذنبين سواء وقعت الجريمة أم لا.

في ٥ أغسطس (آب) ٢٠٠٩، نشر موقع البي بي سي أن قائدًا سابقًا في الجيش الإسرائيلي قال للبي بي سي آن الصغار الفلسطينيين كانوا يعاملون بصفة روتينية بطريقة قاسية أثناء احتجازهم. كول إفراتي الذي ترك الجيش من خمسة شهور سابقة قال: أنا لم أحتجز أحدًا قط عمره أقل من تسع أو عشر سنوات ؛ أما من هم في الرابعة عشرة أو الثالثة عشرة أو الحادية عشرة فهم بالنسبة لي ما زالوا أطفالاً؛ ولكنهم يُحتجزون كالكبار. كل جندي كان في المناطق المحتلة سيروي لك نفس القصة. الأشهر الأولى بعد أن تركت الجيش، كنت أحلم بالأطفال العرب واليهود باستمرار».

إذا كان هذا هو تعامل الاحتلال مع أطفال لم يبلغوا الـحُلم بعد، فكيف بتعامله مع النساء والرجال والشيوخ والشباب. وإذا كان هذا هو التعامل في الضفة في ظل سلطة رام الله التي قمعت الشعب الفلسطيني ومنعته في الغالب الأعم من مناصرة إخوانه في غزة، فكيف إذن بأهل غزة في ظل هذا القتال الضاري والآلة العسكرية المجنونة والتصرفات الوحشية والسادية لقوات مذعورة تخشى حتى خيالاتها؟

* * *

الفصل الثالث

أوهام النصر: تنبؤات مبكرة بالفشل

تحدث بعض الإسرائيليين منذ بدايات الحرب عن توقعاتهم بفشل إسرائيل في تحقيق أهدافها من هذه الحرب، مهما كان حجم النيران المستخدمة، ومهما حاولت إسرائيل اقتلاع المقاومة والقضاء فى هذه الحرب على قيادتها، ومهما حاولت أيضًا تركيع القطاع الصامد.

مسبوكة من رصاص قديم

يسترجع يغئال سيرينا دروس الانسحاب الإسرائيلي من لبنان سنة ٢٠٠٠، ثم من غزة سنة ٢٠٠٥، فيقول: «كما في لبنان قادنا انسحاب غزة الأبكم إلى فترة الصواريخ. صواريخ غزة تذكار للمكان الذي لم نُعلمه شيئًا سوى إطلاق النار، وتركناه بعد ذلك لنفسه.

في الجبهتين اللتين انسحبنا منهما عسكريًّا تركنا ورمًا دائمًا، مرضا يستصرخ الجيش لعلاجه، وبمحاولته يُهزم مرة بعد أخرى، لأن الهدوء والسكينة لا ينشآن البتة من اليأس والقتل. حتى لو سُويت غزة بالأرض، فلن ينشأ أي هدوء، بل انتقام يأتي من السكون ومن الأعشاب ومن القبور»[1].

(١) يغئال سيرينا، مسبوكة من رصاص قديم، يديعوت، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

أوهام النصر

تحت هذا العنوان، كتب تسفي برئيل عن سيناريوهين إسرائيليين لحرب غزة: أحدهما جامح محلق في الخيال، والآخر حقيقي شبيه بما جرى في حرب لبنان ٢٠٠٦، يقول الكاتب: «هناك سيناريو جديد يلقي بظلاله على السياسيين وعلى الجمهور: يسمونه عملية عسكرية واسعة. هذا مصطلح يضم في ثناياه كل الأمنيات الخفية في السرائر: انتقام من إطلاق النار والصواريخ، استعادة مكانة وهيبة إسرائيل، توجيه ضربة جسيمة لحماس، التعويض عن فك الارتباط عن غزة، توجيه رسالة حادة لإيران، تهديد مبطن لحزب الله، وكذلك التعبير عن قلق الحكم في إسرائيل لمواطنيه، وتسجيل بضعة نقاط استعدادا للانتخابات.

الخيال في حالة نشاط، وأنشودة المجد والفخار تعزف. ها هي الطائرات الحربية قد قصفت أهدافًا في قلب غزة، وغدًا قد يدخل آلاف الجنود مقتحمين أزقتها. غدًا قد يقضون على إسماعيل هنية ومشير المصري ومحمود الزهار. الجيش الإسرائيلي يسيطر على مواقع السيطرة التابعة لحكومة حماس، والناطق باسمه يرسل للصحافة آلاف الصور عن الأسلحة والصواريخ التقنية التي ضُبطت في المخازن. جنود الوحدات الخاصة يشقون طريقهم نحو المكان الذي يختبئ فيه جلعاد شاليط، والجندي المخطوف يعود إلى والديه سليما معافى. الانتخابات ـ كما سيصرح المذيع ـ ستُجرى في موعدها. ويتبقى لتسيبي ليفني وإيهود باراك وبنيامين نتنياهو خوض الكفاح من أجل حقوق طبع الحرب الناجحة التي كانت في غزة.

هذا كان السيناريو الخيالي؛ ذلك لأن السيناريو الحقيقي لا يُعرض علينا. ربما سيُعرض علينا عندما تتشكل لجنة التحقيق التي ستحقق فيما حدث في غزة»[1].

إسرائيل لم تنتصر في حرب

يقول إبراهام بورج رئيس الكنيست الأسبق: «منذ حرب الأيام الستة لم ننتصر قط. لماذا تنتهي حروبنا بنغمة ضبابية ثابتة؟ أعتقد أنه لا يمكن بعدُ الانتصار في الحروب. ليس فقط أننا لا نستطيع، وإنما لا يستطيع الغرب كله. من الصعب أن أتذكر حربًا واحدة في الستين

(١) تسفي برئيل، أوهام النصر في غزة، هآرتس، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.

عامًا الأخيرة انتصرت فيها الولايات المتحدة نصرًا مبينًا. لديها جيش هائل ؛ ولكن أمريكا أيضًا لا تنتصر. فيتنام انتهت بالعار. حربا الخليج (الأولى والثانية) لا توصف كإنجازات عسكرية مفتخرة.

وعليه، يبدو أن القيادة الإسرائيلية ستفشل. فشل أساسه تجاهل التحوّل في مفهوم الانتصار: من الحسم إلى النقاش، من القتل إلى بناء الجسور. هنالك جسر من سديروت إلى غزة. من لا يَسْر عليه، فإنه يقود شعبه إلى فشل في جميع حروبه»[1].

ليس هناك حل عسكري للصراع بين إسرائيل وحماس

يقول المؤرخ آفي شليم: «لا يمكن لأي قدر من التصعيد العسكري الذي تقوم به إسرائيل أن يحصنها أو يمنع عنها الهجمات الصاروخية. فبالرغم من كل هذا الموت والدمار، فإن «حماس» واصلت المقاومة وشن الهجمات الصاروخية. هذه حركة مقاومة تمجد التضحيات والاستشهاد. ببساطة أقول ليس هناك حل عسكري للصراع بين إسرائيل وحماس»[2].

* * *

(١) إبراهام بورج، انتصارات ؟! لا يوجد شيء كهذا، هاآرتس، ٥/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) آفي شليم، كيف تسببت إسرائيل في وضع غزة على شفا كارثة إنسانية؟ الجارديان البريطانية، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

أخطاء إسرائيل في حرب غزة

ارتكبت إسرائيل في حرب غزة مجموعة من الأخطاء المركبة أثرت على مجريات الحرب، وعلى نتائجها. هذه الأخطاء هي:

حرب بدون قيادة مترابطة

دخلت إسرائيل الحرب بقيادة ثلاثية منقسمة على ذاتها : أولمرت وباراك وليفني. تنعدم بينهم الثقة. وتتجاذبهم صراعاتهم الانتخابية. وتتحكم خلافاتهم السياسية في تصرفاتهم وقراراتهم. وهو انقسام رافق الحملة منذ بدايتها، وخرج من الغرف المغلقة إلى وسائل الإعلام، تقول هاآرتس: «في الأسابيع التي سبقت القرار بحملة رصاص مصهور وبقوة أكبر منذ الانطلاق إلى العملية، اشتعل جدال مغطى إعلاميًّا بين أولمرت وشريكيه الكبيرين في القيادة السياسية: وزير الدفاع إيهود باراك ووزيرة الخارجية تسيبي ليفني. في بؤرة الخلاف يقف تبادل للاتهامات على كشف أسرار العملية وخروج عن الصلاحيات، ومشادات على الحظوة العامة لما يلوح كنجاح عسكري في الأيام الأولى. وبدلًا من إظهار التضامن والتمسك بالمهمة فإن أولمرت، وليفني وباراك ينشغلون ببناء صورتهم الإعلامية.

محظور أن تلعب الاعتبارات السياسية والخصومات الشخصية دورًا رائدًا في القرارات على الخروج إلى الحرب وتعريض حياة المدنيين والجنود للخطر.

السكان الذين تتعرض منازلهم للهجوم، والجنود الذين قد يكونون مطالبين باجتياح غزة، يحتاجون إلى أن يعرفوا بأنهم يعرضون أنفسهم للخطر من أجل هدف وطني، وليس كحجارة شطرنج في الملعب السياسي»[1].

كانت ليفني تدرك أنه «إذا نجحت العملية سيكسب باراك. وإذا فشلت العملية ستخسر هي. بالنظر إلى هذا الوضع، يجب عليها أن تتحدث طول الوقت يمينًا، وأن تنظر بقلق يسارًا. يقول عدد من مستشاريها إن كل يوم قتال يُسقط منها نصف نائب ويزيده إلى باراك»[2].

لقد اعتبر إيتان هابر رئيس ديوان إسحاق رابين ذلك لعنة حلت بإسرائيل، إذ تؤثر المصالح الانتخابية على قراراتها المصيرية، فيقول: «لعنة وقعت على دولة إسرائيل: الانتخابات القريبة للكنيست تشوش الوعي. تخلق أوضاعًا لا تطاق للمتنافسين وأساسًا لثلاثة زعماء في إسرائيل. حتى لو كان هؤلاء الثلاثة ملائكة علويين، أعضاء في طابور الأولياء، فلا يوجد أي احتمال ألا تؤثر الانتخابات على سلوكهم وعلى قراراتهم. لشدة المشكلة، فإن لديهم ليس فقط دولة يديرونها، بل وحرب أيضًا. لعنة كبيرة وقعت على دولة إسرائيل»[3].

حرب بدون هدف إستراتيجي

يقول الخبير الإستراتيجي الأمريكي أنتوني كوردسمان: «ما هو الغرض الإستراتيجي وراء القتال الحالي ؟ فبعد أسبوعين من القتال لم ينبس أولمرت وليفني وباراك بكلمة واحدة تدل على أن إسرائيل ستجني منافع إستراتيجية، أو منافع تكتيكية أكبر من المكاسب التي حققتها من ضرب منشآت أساسية لحماس بصورة انتقائية في مستهل الحرب. في الواقع، إن صمتهم يثير أسئلة متكررة حول ما إذا كانوا سيكررون الإخفاقات الهائلة التي مُنيت بها قيادة إسرائيل السياسية العليا خلال حرب إسرائيل ـ حزب الله في عام ٢٠٠٦. هل تتخبط إسرائيل نوعا ما في حرب متصاعدة باطراد من غير هدف إستراتيجي واضح، أو على الأقل بهدف إستراتيجي يمكنها أن تحققه على نحو معقول ؟»[4].

---

(١) أسرة التحرير، نزاع شخصي في القيادة، هاآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩

(٣) إيتان هابر، الثلاثي غير المقدس إلى أين يقود إسرائيل المأزومة ؟، يديعوت، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

(٤) أنتوني كوردسمان، انتصارات تكتيكية وهزيمة إستراتيجية، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

حرب بغير خطة للنصر

يقول موشيه أرنس وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق: «بخلاف جميع دروس التاريخ، وبخلاف العقل المستقيم، أقنعت قيادتنا نفسها بتأييد وسائل الإعلام بأنه لم تعد توجد حروب ننتصر فيها كما كان الأمر ذات مرة، أو لا يمكن أن نهزم الإرهاب بالقوة.

كيف يمكن أن نزعم أن الجيش الإسرائيلي الذي يُفترض أن يواجه جيوشًا نظامية قوية غير قادر على حسم معركة مع نحو عشرين ألفًا إذا بالغنا من المسلحين بسلاح خفيف ومتوسط ؛ إلا إذا كان يحارب ـ كما حارب في لبنان ـ بغير خطة للنصر.

في الحقيقة، إن خطتنا تدل على أن قادتنا يتكلون على المصريين أن يدافعوا عنهم بمنع التهريب من سيناء. هذا بطبيعة الأمر أمل باطل. من المهم أن نذكر أيضًا أنه سيكون لامتناع إسرائيل عن هزيمة حماس آثار خطيرة. الدرس سهل: من لا يجهد نفسه في الانتصار في الحرب إلى النهاية سيكون حكمه حكم نتائج حرب لبنان الثانية»[1].

ويقول الكاتب الإسرائيلي عاموس ريغف: «الاستنتاج الأساسي للجنة فينوجراد بالنسبة لنتائج حرب لبنان الثانية ـ «تفويت كبير وخطير» ـ صحيح أيضًا بالنسبة لحرب غزة. يوجد شيء يُسمى النصر. فقط إذا ما كان هناك التصميم السياسي، والعسكري والمدني للوصول إليه. في الحرب في غزة، لم يكن هناك تصميم سياسي. ذات الزعماء الذين قادوا إسرائيل إلى فك الارتباط وإلى التهدئة وأغلقوا عيونهم أمام العنوان الواضح على الحائط، الذي كان يحذر من أن هذا سينتهي بالصواريخ على عسقلان وأسدود ـ ذات الزعماء هم الذين أمروا الجيش الإسرائيلي ـ بانعدام شهية ـ بشن الحرب»[2].

التقدير الزائد لقوة حماس

يقول ناحوم برنياع: «في الأشهر الأخيرة خرجت عن أذرع الأمن في إسرائيل قصص رعب عن المنظومات المحصنة التي بنتها حماس في القطاع، وعن الأنفاق، وعن الفخاخ، وعن تصميم القوة المقاتلة لحماس.

---

(١) موشيه آرنس. لا يحل لنا أن نرفض هزيمة حماس، هآرتس، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) عاموس ريغف، ما حققته إسرائيل على الأرض، إسرائيل اليوم، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

القصص خدمت هدفًا: منع عملية عسكرية إسرائيلية. ومثلما وقع جهاز الأمن في خطيئة الاستخفاف بحزب الله قبل الحرب في ٢٠٠٦، هكذا وقع في خطيئة التقدير الزائد لحماس قبل العملية الحالية»[١].

حرص مفرط على الحياة

«الحرص المفرط على الحياة» كان نظرية القتال الإسرائيلية الرئيسية في غزة. هذا الخوف من الموت أو الإصابة أو الأسر، جعل الجيش الذي لا يُقهر يخشى مواجهة حتى عجائز فلسطين، يقول الكاتب يونتان شم ـ أور: «اسمع، قال لي ملح الأرض[٢]: كنت هناك. كل شيء كان مفخخًا، والأنفاق. أصدرتُ أمرًا واضحًا بإطلاق النار على كل من يتحرك. فقد بعثوا إلينا من قبل بنساء كبيرات في السن يحملن عبوات. أنا لا آخذ على عاتقي المخاطرات. إذا وضعت في جانب واحد مائة عربي أبرياء أمام جندي واحد من جنودي، فليس لدي أي تردد.

وهو حقًّا لم يتردد هناك. التاريخ يكرر نفسه. الفصل السيئ فيه. فقبل نحو ستين سنة، الفدائيون نغصوا حياة السكان. قوات المظليين أُرسلوا لكيِّ وعيهم. النتائج في البداية، كانت مثل رصاص مصهور. القوات عادت دون إكمال المهمة، ولكن أحياء وبدون إصابات. وعندها عُين موشيه ديان رئيسًا للأركان. أخذ شارون الذي كان يقود وحدة ١٠١، وأعطاه كتيبة المظليين ٨٩٠. أوامر ديان كانت بسيطة جدًّا: لا تعودوا إذا لم تنفذوا. قال صراحة للمقاتلين: لست مستعدًا لأن أسمع عن عملية بدون إصابات بيننا. لا توجد وجبات بالمجان، ولا يوجد انتصار في المعركة بدون خسائر.

على مدى عشرات السنين، بنى ذلك التراث الجيش الإسرائيلي. بعد لبنان الأولى، بدأ هذا يتصدع. في لبنان الثانية تبلور. وفي غزة، أصبحت نظرية القتال الرسمية للجيش الإسرائيلي: المهم ألا نُصاب، وليمت العالم.

دون شجاعة، لا قيمة لكل الترسانة التي في العالم. الشجاعة هي السلاح الحقيقي لكل جيش مظفر. لقد تغيرت الأزمنة، فنحن نحب الحياة أكثر من أي شيء آخر. ولكي لا

---

(١) ناحوم برنياع، حققنا ما أردنا، يديعوت، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يقصد أن هذه القصة سمعها كل من خاض الحرب في غزة، أي أنها قصة متواترة بين القوات الغازية.

نعرضها للخطر، وافقنا على أن نعيش في خوف، وأن نسمح لكل حارس في مجمع تجاري أن يجري علينا تفتيشًا، وأن نكون مهانين في المطار، وأن نتنازل عن حقوق المواطن، وبالأساس نحن لا نريد أن نموت في الحروب. الخوف انتصر علينا أيضًا»[1].

هذه السياسة أدت إلى فشل حملة الرصاص المصهور، وأدت إلى غضب دولي غير مسبوق على إسرائيل، يقول ناحوم برنياع: «عندما يكون صفر إصابات لقواتنا هو الهدف الأسمى:

- يتأخر قدر الإمكان الشروع في الحملة.
- نقصف غزة من الجو بدلًا من إدخال القوات البرية إليها.
- نطلق كميات مبالغة فيها من النار أمام كل خطر.
- ومن اللحظة التي تبدأ فيها الحملة نستدعي بكل أنواع الطرق الملتوية الطلب لوقف النار.

ما اعتبره الرأي العام في إسرائيل انتصارًا، الرأي العام في البلدان الأخرى اعتبره اعتداءً من جيش حديث محمي جيدًا على سكان عديمي الحيلة»[2].

الاستخدام المفرط للقوة

«بعد أسبوعين من إدارة أولمرت للمعركة بمسئولية وبضبط للنفس، قفز من داخله عزيز متبجح خفيف العقل. اندلع من داخله القائد المنفلت للحرب الفاشلة حرب لبنان ٢٠٠٦. ولكن المشكلة ليست فقط في أقوال التبجح التي قالها رئيس الوزراء، بل بمفهوم التبجح الذي بدأ يتبناه. مفهوم يهمس بأن هذه الحرب الرائعة يمكن أن تتواصل أكثر فأكثر. مفهوم يؤدي إلى أن يفكر أولمرت بجدية بإمكانية توسيع الحرب، والسيطرة على محور فيلادلفيا، واحتلال رفح.

في عام ١٩٧٠، كانت إسرائيل غارقة في حرب استنزاف. في بداية تلك السنة حققت إسرائيل تفوقًا حاسمًا على مصر بفضل طائرات الفانتوم التي تلقتها من الولايات المتحدة.

(١) يونتان شم ـ أور، لا يأخذون المخاطر، معاريف، ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٩.
(٢) ناحوم برنياع، دروس رصاص مصهور، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

ولكن إسرائيل لم تكتف بذلك، سارت خطوة أخرى، وقصفت أهدافًا إستراتيجية في العمق المصري، مما أدى إلى أن يسارع الاتحاد السوفييتي إلى تزويد مصر بصواريخ مضادة للطائرات. وهذه عطلت التفوق الإسرائيلي، وقلبت النصر بالنقاط إلى تعادل محرج. بعد ثلاث سنوات من ذلك، ولّد هذا التعادل حرب يوم الغفران.

القاعدة هي قاعدة بن جوريونية بسيطة: لا لشد الحبل أكثر مما ينبغي. استخدام القوة فقط عندما يكون هذا حيويًا. ولما كانت إسرائيل ليست قوة عظمى، فإنه لا يمكنها أن تصل إلى حسم مطلق على خصومها. عليها أن تكتفي بأهداف محددة ومدروسة: أن تردع العدو، وأن تضمن الهدوء بشكل عام، وأن تؤجل قدر الإمكان الحرب المقبلة»[1].

التوق اليائس لصورة النصر

لقد دفع إسرائيل توقها اليائس إلى صورة النصر إلى ارتكاب جرائم حرب أدت إلى آثار سياسية وخيمة، يقول جدعون ليفي: «هذا هو وجه إسرائيل في العالم الآن: دبابات في شوارع غزة المشتعلة، فالمزيد المزيد من القتلى عبثا، عشرات آلاف اللاجئين الجدد، ووزيرة خارجية مغرورة على نحو مفزع، وتنديد ونبذ عالميين متعاظمين.

نزعة الثأر والتوق اليائس لصورة النصر على ظهر مئات آلاف المدنيين، صورة لن تتحقق أبدًا، حتى ولا مع مائة تصفية أخرى لزعماء حماس. من أيّد هذه الحرب ومن عارضها يجب أن يتحدوا الآن في صرخة عالية: كفى»[2].

عدم فهم طبيعة الشعب الفلسطيني

يقول سيفر بلوتسكر «هدف الحملة تحقق: إسرائيل ردت بعصف على نار صواريخ حماس، هكذا قالت أمس الأول في مقابلة في الراديو وزيرة الخارجية تسيبي ليفني. فالرد العاصف أن نكوي وعي قادة حماس، كي يعرفوا لاحقًا بأن إسرائيل مجنونة، فاقدة الصواب منذ الولادة، وعلى كل قسام يُطلق سترد بمحو بيت سكني في أطراف غزة.

---

(١) آري شفيت، إذا كان أولمرت يريد أن يظهر نفسه: المطلوب إنهاء الرصاص المصهور بإنجاز محدود، هاآرتس، ١٥/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) جدعون ليفي، كفى للجنون العطش للدماء ونزعة الثأر، هاآرتس، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

ولكن، لندع للحظة جانبا المسائل الأخلاقية، ولنسأل فقط سؤال المنفعة: هل هذا حقًّا سيردع حماس ؟ أشك في ذلك. في أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الحلفاء كي وعي القيادة النازية بقصف كثيف على المدن الألمانية دون نجاح. المدن مُحيت ؛ أما الوعي فلم يتغير. من أجل إخضاع النازيين اُضطرت جيوش الحلفاء إلى الوصرل حتى برلين»[1].

عدم الاستفادة من دروس الحروب السابقة

يقول ألوف بن: «توجد ظاهرة مكررة تسبب خسارة العمليات العسكرية. لنسمها «نقطة النشوة»، ويمكن تعريفها على هذا النحو: النجاح السريع في بدء المعركة يرفع معنويات القادة ويشجعهم على الاستمرار في القتال، اعتقادًا بأن استعمال قوة أخرى سيُفضي إلى إخضاع العدو المضروب.

دُفعت إسرائيل إلى نقطة النشوة بعد النصر الخاطف في حرب الأيام الستة، واعتقدت أنها إذا استعملت قوة أخرى فستبقى في سيناء إلى الأبد. اقترح المصريون ـ الذين دُمرت مدنهم في حرب الاستنزاف ـ السلام الذي رفضته جولدا مائير باحتقار. وكانت النتيجة حرب يوم الغفران التي دفعت إسرائيل إلى صدمة وطنية، وبعدها إلى انسحاب من سيناء بعد آلاف القتلى بلا حاجة.

كان جورج بوش الأب زعيما فريدًا في نوعه، أوقف التقدم في حرب الخليج في ١٩٩١ بعد تحرير الكويت السريع، ولم يغره إلى أن يطارد العراقيين إلى بغداد. ولكن، أحفق ابنه في نقطة النشوة بعد أن أسقط صدام سريعًا في ٢٠٠٣، وكانت النتيجة استنزافًا ضعضع مكانة أمريكا كقوة كبرى مسيطرة على العالم.

أولمرت بدلًا من أن يقف بعد العملية الجوية ـ التي فاجأت العدو وأصابته بمكان مؤلم ـ اعتقد أن النصر قريب وأصر على الضغط، وعرض شروطًا مفرطة لوقف إطلاق النار. كانت النتيجة: إضعاف الإنجاز الأولي، وضعضعة التأييد الدولي والتكتل الداخلي»[2].

---

(١) سيفر بلوتسكر، إسرائيل لا تريد الانتصار، يديعوت، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) ألوف بن، رسالة إلى قادة إسرائيل: اخرجوا من غزة قبل أن يحل محل النشوة البراقة صدمة مؤلمة، هآرتس، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

سياسة عد الجثث كمعيار للإنجاز والنصر

تعتمد السياسة الإسرائيلية معيار عد الجثث أو بعبارة أخرى إيقاع أكبر خسائر بشرية في الفلسطينيين كمعيار للإنجاز والنصر. ولكن هذا المعيار ثبت فشله في حروب كثيرة؛ إذ: «بدأت هزيمة الولايات المتحدة في حرب فيتنام عندما أخذ الجيش الأمريكي وقادته بسياسة «عد الجثث». أما الأهداف الأخرى مثل إخضاع حكومة فيتنام الشمالية أو القضاء على قدرة الفيتكونج (قوات ڤيتنام الشمالية) على القتال، فلم يكن في الإمكان إحرازه بالاستعمال المفرط الذي لا تمييز فيه للقوة العسكرية، وبقي فقط الافتخار بعدد قتلى الفيتكونج. يجب أن نؤمل ألا يجعل استمرار القتال في غزة الجيش الإسرائيلي يأخذ أيضًا بسياسة «عد الجثث». فموت بضع مئات أخرى من الفلسطينيين لن يفض بالضرورة إلى تسوية أفضل»[1].

* * *

(١) رؤفين بدتسور، أخطاء الرصاص المصهور، هآرتس، ٨/ ١/ ٢٠٠٩.